



هل ما زال نافعاً أن نشجب ونندد ونعرض ونحدّر؟ أم أننا تأخرنا كثيراً، وقد بات الانزلاق، لا بل السقوط، محتمماً، فيما نحن لا نفعل سوى أن نغمض أعيننا، متوجسين، متوقعين وصول لحظة الاصطدام والانفجار الكبير؟

تُسرّب أشرطةٌ عملية تعذيب معتقلين في سجن رومية اللبناني، يقال إن عمرها شهراً تقريباً، وإنها تلت التمرد الذي قام به الموقوفون الإسلاميون في المبني "ب"، وقرار وزير الداخلية اللبناني بقمع التمرد. وتُصدر لجنةُ أهالي معتقلي سجن رومية يومها بياناً تتحدث فيه عن تعريمة السجناء أياماً، ضربهم ضرباً مؤذياً، كسر عظام بعضهم وعمي عيون آخرين، بالإضافة لخلع أكتاف بعض آخر، في حين يعد وزير الداخلية بإجراء تحقيق شفاف في القضية، مؤكداً أنه لم يتم إيهام أحد من السجناء في رومية.

ويكفي النظر إلى ما تناقلته مواقع التواصل الاجتماعي من أخبار، وما ضجت به من تعليقاتٍ هي أقرب إلى حرب كلامية مستعرة، لإدراك فداحة الحالة التي وصلت إليها البلاد، لا على مستوى انتهاك كل المعايير الأخلاقية والإنسانية في التعامل مع السجناء، بل ولجهة تسييس الحدث والحكم عليه، سلباً أو إيجاباً، تبعاً لما يملئه علينا "ضمير" انتمائنا الطائفي، أو ميلانا السياسي.

هكذا انشغل المعلقون اللبنانيون، مثلاً، بتحليل لكنة عنصريِّ الأمن الذين مارسا التعذيب، وبتوصف دقيق لمظاهرهما، مؤكدين أنهما من الشيعة المرتهنين لحزب الله وإيران، ومهددين كل من يدافع عنهم، ويلف لفيفهما، بعقاب قريب، سيسحقهم فيه السنة كالحشرات.

في حين اعتبر آخرون أن ما يظهره الشريط رد فعل طبيعي على تمرّدٍ قام به السجناء الإسلاميون، وعلى ما سببوه من تدمير في السجن الذي أحرقوه، قبل أن يحتجزوا 15 عنصراً من قوى الأمن، ويرسلوهم إلى المستشفيات مكسّري العظام، بسبب الضرب الوحشي بالعصي وقساطل الحديد. وقد أشير إلى وجود "إمارة رومية"، كان يحكمها سجناء المبني "ب" الذين سبق أن ارتكبوا جرائم بحق سجناء آخرين، كانت تتمتع بكل مقومات الرفاهية التي قد لا يجدونها خارجاً، وتتوفر فيها وسائل الاتصال الحديثة التي مكّنتهم من استمرار التواصل مع الخارج، وإدارة عمليات إرهاب حتى. ولم ينسَ بعضهم ذكر المماطلة في محاكمتهم، معتبراً أن ذلك أصل البلاء وسبب تفاقم الأزمة، خصوصاً وأن هناك من بينهم أبرياء، قد تكون عقوبات تهمهم أقصر لكثير من مدة توقيفهم...

وخلالقة القول إن أحداً لم يذكر أن عنصري الأمن ممثلان لدولةٍ، لا ينبغي، ولا يحق لها، أن تمارس التعذيب على سجنائها وموقوفيها، أيا كانت تهمتهم، حتى ولو كانوا جلادين، حتى مع اليقين المبرم بأنهم مجرمون، لأن الدول المتحضرة لا تمارس على السجينين وحشية. ولم يشغل أحد بتلك الأجساد الجاثية على ركبها، تستجدي الرحمة والشفقة، أو بمشهد العري مقتناً بالتعذيب، وبالقسوة مقترنة بلا أخلاقيةٍ تريد الإذلال والتحقيق.

عارياً يبدو الرجل، ضعيفاً، ضحية، وقد نزع عنه، منه، كل ما يخفي هشاشته. هي جلد عارية، وعظام وأطراف موثقة في الظهر. بهذه البساطة، بهذا الفقر. فيما يسخر عنصر الأمن في أحد الشرطيين من جسدِ بدين، يلقط ثديه المترهل كثدي امرأة، ويسأله ما هذا، ثم يضربه بهراوته عليه.

لم يفکر أحد أنه ليس الألم الجسدي، ليس الضرب بالعصا، أو الرفس بالقدم، ليس الكلام البذيء والشتائم. إنه الإذلال والتحقير، وهما لا يكتملان، ما لم يكن الرجل عارياً. كسر الإرادة والمقاومة، اغتصاب الروح، في سجنٍ لا توفر فيه أدنى الشروط من أي نوع كانت. اكتظاظ وتحقيق، وعائلات برمتها تُذل وتنهان، كلما صعدت إليه لتزور أبناءها، وشعب بأكمله يعيش في سجن كبير، أضعاع، منذ دهر، بوصلته، ولا يبني يدور على نفسه في عين الإعصار.

العربي الجديد

المصادر: